رؤية جديدة في مفهوم علم الدلالة

الدكتور أحمد نصيف الجنابي

استاذ الدراسات اللغوية والنحوية المساعد
بكلية الآداب الجامعة المستنصرية

المدخل

يحتل علم الدلالة مكانا بارزا في الدراسات اللغوية . . وله ميادين وآفاق تبارى فيها العلماء قديما وحديثا . ولم يكن اللغويون وحدهم في هذا الميدان وإنما الفلاسفة أيضا . . والبلاغيون . . . والمؤلفون في اعجاز القرآن . . . والمفسرون . . .

وقد بحث الدلاليون - على اختلاف مناهجهم واتجاهاتهم - في مفهوم الدلالة ، والعلاقات الدلالية ، وتطور الدلالة وأسباب هذا التطور .

وكل هذا يشهد لهم بالقدم الراسخة والفضل . . غير أن الذي وجدته بعد البحث في كل تلك الميادين أن الدلاليين لم يعطوا - قدامى ومحدثين - تعريفا دقيقا ، ولا مفهوما يتسع لآفاق هذا العلم . . فدفعني هذا إلى مناقشة تعريفات القدامى للدلالة لأن الدلاليين القدامى عرفوا الدلالة تعريفا اصطلاحيا لا يختلف عن المعنى اللغوي الموجود في المعجمات . أما المحدثون فقد أعطوا تعاريف إصطلاحية لمفهوم هذا العلم تكاد تتقارب فيما بينها إن لم أقل تكاد تتفق . .

لقد ناقشت كل التعريفات وأعطيت أمثلة متعددة ومتنوعة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأقوال البلغاء من العرب ، ومن الشعر العربي الجميل ، فأثبتّ أن كل التعريفات قديمها وحديثها لا تتفق اتفاقا دقيقا مع معطيات تلك الأمثلة ، واستنتجت من الأمثلة نفسها قصور التعريفات التي سبقتني . . فما العمل ؟

الجواب هو أنني قدمت مفهوماً جديداً لعلم الدلالة أراه يستوعب آفاق هذا العلم

وميادينه المختلفة . . وآمل أن أكون قد وفقت ، إن شاء الله .

والمنهج الذي اتبعته هو التنظيم التاريخي للآراء فابتدأت بتعريفات اللغويين العرب ، واتبعتها آراء اللغويين المحدثين ، وختمت عملي بالمفهوم الجديد الذي وفقني الله جل وعز إليه .

ويقع بحثي في ثلاث حلقات : ـ

الحَلْقة الأولى : تعريفات الدلالة عند العرب القدامى .

الحَلْقة الثانية : تعريفات علم الدلالة عند المحدثين .

الحلقة الثالثة : مفهومنا الجديد لعلم الدلالة .

معهد البحوث والدراسات العربية

الحلقة الأولى
تعريفات الدلالة عند العرب القدامى

أُبين في هذه الحلقة المفهوم اللغوي للدلالة ، ثم أوضح تعريفها الاصطلاحي . وقد اتبعت هذا المنهج لأن التعريف الاصطلاحي قريب كل القرب من المفهوم اللغوي .

أ ـ الدلالة في اللغة : ـ

قال الأزهريّ (المتوفى ٣٧١هـ) ، في كتابه : تهذيب اللغة : (دلَّ يدُلّ : اذا هدى . ودلّ يدِلُّ : مَنَّ بعطائه . والأَدَلُّ : المَنّانُ . قال الفَراء : دليل من الدِّلالة والدُّلالة ، بالكسر والفتح)[١] .

وقال الجوهري (المتوفى ٤٠٠ هـ) في « الصحاح » : (الدليل : ما يُستدل به . والدليلي : الدليل . والدليل : الدال . وقد دله على الطريق يدُله دَلالة ودِلالة ودُلولة ، والفتح أعلى) .[٢]

وقال ابن منظور (المتوفى ٧١١هـ) في « اللسان » : (دله على الشيء يدله دلا ودلالة فاندلّ : سدده إليه . ودللته فاندل . قال أبو منصور : سمعتُ أعرابيا يقول للآخر : ما تندل على الطريق . والدليل : ما يُستدل به . والدليل : الدال وقد دله على الطريق يدله دلالة ودلالة ودلولة والفتح أعلى) .[٣]

ب ـ الدلالة في الاصطلاح : ـ

عرف الجرجاني (المتوفى ٨١٦ هـ) الدلالة بقوله : (الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، والشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول . وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص . ووجه ضبطه أن الحكم المستفاد من النظم إما أن يكون ثابتا بنفس النظم أو لا . والأول إن كان النظم مسوقاً له فهو العبارة وإلا فالاشارة ، والثاني إن كان الحكم مفهوماً من اللفظ لغةً فهو الدلالة أو شرعاً فهو الاقتضاء . فدلالة

النص عبارة عما ثبت بمعنى النص لغةً لا اجتهاداً . أي : يعرفه كل من يعرف هذا اللسان بمجرد سماع اللفظ من غير تأمل ، كالنهي عن التأفيف في قوله تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ يوقف به على حرمة الضرب وغيره مما فيه نوع من الأذى ، بدون الاجتهاد) .[٤]

أما ابن النجار (محمد بن أحمد بن عبد العزيز ، المتوفى ٩٧٢هـ) ، وهو من الأصوليين ، فقد عرف الدلالة بقوله : (الدلالة ما يعني التي يلزم من فهم شيء ، أي شيء كان ، فهم شيء آخر ، يعني كون الشيء يلزم من فهمه فهم شيء آخر . فالشيء الأول هو الدال والشيء الثاني هو المدلول) .[٥]

أما التهانوي (وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري) فيعرف الدلالة فيقول : الدلالة ـ بفتح الدال ـ هي ما اصطلح عليه أهل الأصول والعربية والمناظرة : أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر . والشيء الأول يسمى دالاً ، والشيء الآخر يسمى مدلولاً ، والمطلوب بالشيئين ما يعمُّ اللفظ وغيره . فتتصور أربع صور : ـ

الأول : كون كل من الدال والمدلول لفظاً كأسماء الأفعال الموضوعة لألفاظ كأسماء الأفعال .

والثانية : كون الدال لفظاً والمدلول غير لفظ « كزيد » الدالّ على الشخص الانساني .

والثالثة : عكس الثانية كالخطوط الدالة على الألفاظ .

والرابعة : كون كل منهما غير لفظ كالعقود الدالة على الأعداد .

وما قيل : إن الدلالة كون الشيء بحيث يعلم منه شيء آخر ، فالمقصود منه كونه بحيث يحصل من العلم به العلم بشيء آخر في الجملة ، لأن المتبادر من علم شيء من شيء عِرفاً ، فلا يتوجه أن لايصدق على دلالة أصلاً ، إذ لايحصل العلم بالمدلول من نفس الدال بل من العلم به ، وإن أريد به اللزوم الكلي بمعنى امتناع انفكاك العلم بالشيء الثاني من العلم بالشيء الأول في جميع أوقات تحقق العلم بالشيء الأول ، وعلى جميع الأوضاع الممكنة الاجتماع معه يصير تعريفاً على مذهب أهل الميزان ، إذ المعتبر هو الدلالة الكلية الدائمة ، والمعتبر فيه اللزوم بالمعنى المذكور .[٦]

فتعاريف الدلالة في المعجمات اللغوية لاتخرج عن الدلالة المادية المتصلة بمفهوم « الدليل » الذي كان يجوب الصحراء المترامية الأطراف يرشد الناس إلى المسالك . وهذا

أمر لافت للنظر ، فإن استمرار هذا المفهوم في المعجمات اللغوية ما يقرب من ستة قرون (من عصر الخليل ١٠٠ ـ ١٧٥هـ) ، إلى عصر ابن منظور ، المتوفى ٧١١هـ) ، دون تغيير أو تطور يشير إلى عدم الاستفادة من معطيات التطور اللغوي ، وعدم الاستفادة من الكُتاب الذين أغنوا الاستعمالات اللغوية بـدلالات جديـدة ولا سيما « الجـاحظ » في (البيان والتبيين) فقد ربط بين معنى البيان ومعنى الدلالة ، فهو يرى (أن الغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام ، فبأي شيء بلغت الافهام فـذلك هـو البيان) .[٦] وعرف « البيان » بقوله : (البيان : اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل . .) .[٧] ثم يتحدث عن أصناف الدلالات من لفظ وغير لفظ وجعلها خمسة : أولها اللفظ ، ثم الاشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة . والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات .[٨]

إنه لنقصٌ كبير أن تخلو المعاجيم اللغوية من مثل هذا . .

أما تعاريف الدلالة عند العلماء الأصوليين والفلاسفة (الدلالـة الاصطلاحية) فتقترب من مفهوم الاشـارة الرمـزية ، وتشتـرك فيها الدلالة اللغـوية والـدلالة بغـير اللفظ . . . وهذا المفهوم يبتعد عن مفهوم علم الدلالة الذي ندرسه . .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

الحلقة الثانية

تعريفات علم الدلالة عند المحدثين

استعمل مصطلح « الدلالة » في أوروبا ، لأول مرة ، العالم اللغوي الألماني (ك . رايسك) K. Reisig وذلك عندما أصدر كتابه : فقه اللغة اللاتينية ،[٩] سنة ١٨٣٩م .

وقد حدد موضوع البحث بأنه « دراسة القواعد العامة التي تفسّرُ تطور المعنى » . وكان هذا الهدف التاريخي أمامه في بحث الدلالة ، فهو لا يهتم بالدلالة ووسائل تحديدها ، بل بتغيرها ومحاولة تفسير هذا التغير .[١٠]

وفي سنة ١٨٨٣م أصدر العالم اللغوي الفرنسي (م . بريال) M.Breal ، كتابه : « مقال في علم الدلالة : علم دراسة المعنى » « Essai de Signification Sience de Semantique » وترجم إلى الانجليزية سنة ١٨٩٧م ، تحت عنوان :[١١] « Essay on Semantics » ثم سنة ١٩٠٠ تحت عنوان : SEMANTICS: Studies in Science of meaning فدلت الترجمة على أن المقصود بعلم الدلالة هو علم دراسة المعنى .

ويقرر علماء اللغة المحدثون أن علم الدلالة بمفهومه الحديث يبدأ بالقرن العشرين وبربعه الأول على التحديد .[١٢]

ويؤكد هؤلاء العلماء أن « فرديناند دي سوسير » F.DeSAUSSURE يمثل بداية الاتجاه الحديث في دراسة المعنى .[١٣]

غير أنه لايقدم أي تعريف واضح لعلم الدلالة . . ويرى (أوغدن وريشارد) في كتابهما : « معنى المعنى » ـ الذي ظهر طبعته الأولى سنة ١٩٢٣م ـ أن علم الدلالة قد فشل في معالجة مشكلة المعنى بناء على ما قدمه كل من (بريال) و (دي سوسير) .[١٤]

أما مؤلفا « معنى المعنى » فقد ركزا عملهما في بحث دلالة اللفظة المفردة باعتبارها رمزا يتصل بالفكر الانساني .

إن كتابهما يعالج شطراً من « مشكلة المعنى » وهي عندهما « المشكلة المركزية في اللغة » (وقد تابعهما على هذا « ستيفن أولمان » في كتابه : دور الكلمة في اللغة) .[١٥] كما أنهما يعالجان الصلة بين الأفكار والكلمات والأشياء .

وحقيقة الأمر أنهما يبحثان فيما سمي في النقد العربي بقضية « اللفظ والمعنى » ولا يفعلان سوى استبدال اللفظ بالرمز (Symbol) ، وما الرمز إلا اللفظ في مفهوم كتابهما .

ويسرف المؤلفات في تقديم مجموعة من تعاريف المعنى ، تبلغ ستة عشر تعريفا ، إن أعرضنا صفحاً عن التعريفات الجزئية .[٦]

وهذا مثال حي للاضطراب الناتج عن الاستعمال غير الواعي للمصطلحات المجردة تجريداً بالغاً ، على حد تعبير « ستيفن اولمان » .[١٧]

أما « بلو مفيلد » L. Bloomfield رأس المدرسة الوصفية البنائية (أو المدرسة السلوكية): Description Structural Approach فقد بحث المعنى في محيط السلوك البشري من حيث كونه يتألف من عادات مختلفة ، إذ تتكون اللغة من « المثير » Stimulus ـ الذي يصدر عن المتكلم ـ والاستجابة Response ـ التي تصدر عن السامع .

وقد عرف المعنى في كتابه « اللغة » بأنه :[٨] (الموقف الذي يقوم فيه المتكلم بقول كلمة أو جملة مع رد الفعل أو الاستجابة التي يقتضيها من المستمع) .

أما الأستاذ « س . اولمان » فيعرف علم الدلالة بقوله : « إنه أحدث فرع من فروع علم اللغة ، أما الفرعان الآخران فهما : علم الأصوات وعلم الأسلوب » .[١٩]

وفي سنة ١٩٦٨ ظهر كتاب « المدخل إلى علم اللغة » للأستاذ جون لاينز وفيه يعرف علم الدلالة بقوله : (يمكن تعريف علم الدلالة ـ مبدئيا ـ في الوقت الحالي على الأقل بأنه دراسة المعنى) .[٢٠]

وفي سنة ١٩٧٦م ظهرت الطبعة الأولى لكتاب « علم الدلالة » للأستاذ : ف . ر . بالمر ، وفيه يعرف هذا العلم بقوله : (علم الدلالة هو المصطلح الفني الذي يستعمل ليشير إلى دراسة المعنى) .[٢]

والخلاصة أن مصطلح علم الدلالة هو عند جمهور علماء اللغة المحدثين إنما يعني دراسة علم المعنى .

الحلقة الثالثة

مفهومنا الجديد لعلم الدلالة

إن التعريفات السابقة موجزة وغير دقيقة ولا تفي بالغرض لأنها لا تشير إلى آفاق الدلالة ولا إلى أنواعها ، ولا توضح الصلات القائمة بين المفردات التي تسمى « العلاقات الدلالية » (كالتضاد والترادف والمشترك اللفظي . .) ، كما أنها لم تُحط بالأساليب المختلفة ومالها من دلالات لايمكن إغفالها .

أما تعاريف الدلالة عند اللغويين العرب القدامى فهي بعيدة عن المفهوم الاستيعابي لا لقصور في التفكير اللغوي لديهم . . وكيف يكونون مقصرين وقد قدموا لنا نظرية دلالية متكاملة لاتزال أملاً عند المحدثين من علماء اللغة ؟ (وقد درست آفاق هذه النظرية في بحث مستقل) .

إن السبب يرجع - في نظري - إلى أن الدلالة تعد عندهم جزءا من « فقه اللغة » والجزء لايتضمن الكل ، إن صح التعبير .

أما تعريف علماء اللغة المحدثين لعلم الدلالة بأنه علم دراسة المعنى فهو تعريف غير دقيق لأن الدلالة أوسع من المعنى . . وبين الدلالة والمعنى عموم وخصوص ، فكل دلالة تتضمن المعنى ، وليس كل معنى دلالة .

يطلق المعنى ويراد به معنى الكلمة المفردة ، مثل : معنى (مبين) في الآية الكريمة : ﴿ **بلسان عربي مبين** ﴾[٢٢] : واضح . ومعنى أجاج في الآية الكريمة : ﴿ **وهذا ملح أجاج** ﴾[٢٣] : مُرّ . ومعنى الظلم في الآية الكريمة : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾[٢٤] : شرك .

ويراد بالمعنى مفهوم الكلمة المفردة داخل السياق ولا سيما كلمات المشترك اللفظي ، مثل كلمة (السماء) التي قد تعني ما يقابل (الأرض) ، كما في قوله تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾ . وقد تعني (السقف) ، كما في الآية الكريمة : ﴿ **من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل تذهبن كيده ما يغيظ** ﴾ .[٢٦] وقد يراد بها (المطر) كما في قول الشاعر : معوّد الحكماء : -

إذا نـزل الـسـماء بـأرض قـوم رعـيـنـاه وإن كـانـوا غـضـابـا

وقد يراد بالمعنى مفهوم قول من الأقوال الخالدة ، كقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟ أو قول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : « تعرف الشجرة بثمرها »

وقد يراد به مفهوم بيت من الشعر أو أبيات ، تربطها وحدة معنوية .

كقول ابن زريق البغدادي : ـ

ودّعـتـه وبـودي لـو يـودعـني صـفـو الحـيـاة وأني لا أودعـه

أو قول كثير عزة (أو غيره) :

ولـمـا قـضـيـنـا من منى كـل حـاجـة ومسّح بـالاركـان من هـو مـاسـح
وشُـدّت، عـلى دهم المهـارى رحـالـنـا ولم ينـظر الغـادي الـذي هـو رائـح
أخـذنـا بـأطـراف الأحـاديث بيننـا وسـالت بـأعنـاق المطى الأبـاطـح

وفي هذا المقام ننقل قول ناقد معاصر وهو يعلق على هذا البيت : « وحينما نراجع معنى سالت بأعناق المطى الأباطح ، نجد الاستعارة قد أضافت إلى المواقف السابقة أو عدلت منها تعديلا يستحق الذكر ، ذلك أن عنصر الحزن استوعب ـ ضمناً ـ الناقة ، وكان من قبل مقصوراً على الانسان ، وهذا ما عنيناه حين قلنا : إن كل معنى جديد يعيد تشكيل جميع المعاني السابقة » .(٢٧)

ويراد بأبيات المعاني مصطلحاً يعني (الأبيات التي تحتاج إلى من يسأل عن معانيها ولا تفهم من أول وهلة) .(٢٨)

ومن الأمثلة على ذلك أن الرشيد سأل في مجلسه عن بيت الراعي النميري : ـ

قـتـلوا ابـن عـفـان الخـليـفـة محـرمـاً ودعـا فـلـم أر مـثـلـه مخـذولا

فقال : (أي إحرام هـذا) ؟ فقال الكسائي : أراد أنه أحرم بالحج . فقال الأصمعي : والله ما أحرم ولا عنى الشاعر هذا ، ولو قلت أحرم : دخل في الشهر الحرام كما يقال : أشهر : دخل في الشهر ، كان أشبه . قال الكسائي : فما أراد بالاحرام ؟ ! قال الأصمعي : « كل من لم يأت شيئا يستحل به عقوبته فهو محرم » ، خبرني عن قول عدي بن زيد :

قـتـلوا كـسـرى بـلـيـل محـرمـا فـتـولى لـم يمـتـع بـكـفـن

أي إحرام كان لكسرى فسكت الكسائي .[٢٩]

أما مفهوم الدلالة فهو أوسع من هذا كله . .

فإذا قلنا : إن (مَنْ) تدل على العموم للشرط والجزاء ،[٣٠] كما في الآية الكريمة : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾[٣١] ، والآية : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾[٣٢] ، و ﴿ **من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضَنْكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ ،[٣٣] فإن كل هذه الحالات السياقية يصلح لها مصطلح الدلالة ولايصلح لها مصطلح المعنى . .

وإذا قلنا : إن الاستفهام يدل على التقرير إذا جاء بصيغة النفي ، كما في قوله تعالى : ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ ،[٣٤] وقوله : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ ،[٣٥] فإن إطلاق الدلالة أولى من إطلاق المعنى .

وكلما قرأنا الأبيات التي أوردها « ابن قتيبة » ـ في أول كتابه : « الشعر والشعراء » ـ :[٣٦]

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك ما يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟

اتضح لنا المعنى وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار . . . وقد جعلهما « ابن قتيبة » من أبيات المعاني غير أنه لم ير فيهما « كبير معنى » ، وإن كنا نرفض مثل هذا الحكم البعيد عن طبيعة فن الشعر لأنه يهدر قيمة البناء الفني والقيم التعبيرية فيه .

إن دلالة هذين البيتين أنهما يحكيان مشهداً يحس به أهل الصبابة وأهل الهوى وأهل العشق ، وهذا المشهد لايقاس بالمقاييس العقلية أو الذهنية لأن هذا المشهد يحس ولا يوصف ، وإذا سُمع دخل القلب قبل العقل .

لقد سمع الجاحظ من ينشد بيت « أبي العتاهية » :[٣٧]

هذا الشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

فقال للمنشد : قف !! فهذا البيت يدخل القلب بلا استئذان .

ايجاد المعنى في الأبيات السابقة وقياسه « بالكبر والصغر » غاية الفلاسفة والمتكلمين . . . أما غاية أهل الدلالة فهي المرامي القريبة والبعيدة . .

وإذا قرأنا أبيات « دعبل الخزاعي »

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم الله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

ظهر المعنى جليا .. لكن الدلالة غير واضحة . فماذا يريد الشاعر ؟

أنه يقول : ما أكثر الناس ؟ ! ثم يستدرك قائلا : بل ما أقلهم !

وفي البيت الثاني يقول : إني لافتح عيني على أناس كثيرين وفيه يقول مستدركا : ولكن لا أرى أحداً، فما دلالة كل هذا ؟ وهل وقع الشاعر في تناقض؟ إن التحليل الدلالي يكشف عن الجواب . . . !!

خلق الناس ليتعارفوا ويتعاونوا ، ويرعى بعضهم حقوق بعض .

في كل مجتمع سليم ينال كل إنسان حقوقه ، وعليه واجبات اجتماعية يقوم بها تجاه أفراد المجتمع الذي يعيش فيه .

وإن قسماً من هذه الواجبات يتصل بالحياة اليومية ، وقسما منها لايمكن أن تقوم الحياة السليمة بدونه . فإذا أهمل الناس (الذين تعيش بينهم وتربطهم بك روابط متعددة ، وتراهم صباح مساء : أهلا وجيرانا وأصدقاء) كل ما تحتمه الحياة الاجتماعية أحس الشاعر قبل غيره بأن صلة هؤلاء بالمجتمع وبالحياة وبنواميسها قد انفصمت عراها وانقطعت جذورها . فليس أخوك من ربطتك وإياه رابطة الدم ، بل من كان لك عوناً في الضراء قبل أن يكون شريكاً لك في السراء ، وكان معك على من قهرك وظلمك وأخذ حقك .

وليس الجار من كان بيته ملاصقاً لبيتك بدون مراعاة الجوانب الانسانية والاجتماعية ، وإلا كانت الجدران تكفي لتحقق معنى الجيرة. لكن الجار من عرف أن الحياة الاجتماعية السليمة لا تقوم إلا بالتعارف والتضحية والايثار من جانب الطرفين المتجاورين ، وإلا ما قيمة الجار بغير المعاني الانسانية والاجتماعية . . . ؟ !

وليس الصديق من لصق نفسه بك وسمى نفسه صديقا ، بل من صدقك الود وضحى بتوافه الحياة وماديانها من أجل هذه القيمة العليا التي يسمونها الصداقة : ورحم الله من قال : ـ

صديقي من يرد الشرَّ عني ويرمي بالعداوة من عداني
ويصفو لي إذا ما غبت عنه وأرجوه لنائبة الزمان

واعتقد أننا اقتربنا الآن من فهم السر في الجمع بين المتناقضات في أبيات « دعبل الخزاعي » . . . إنه لاينفي وجود الناس ، ولو فعل ذلك لما كان لأبياته أي معنى ، ولفقدت أصالتها .

لكنه يثبت وجودهم المادي الجسماني : اللحم والدم والهامات والشعر واليد والرجل ، وبهذا المعنى يكون الناس كثيرين ، بل ما أكثرهم !

وحين يريد الانسان العادي هذا المعنى فيفتح عينيه في الصباح يجد كثيرا من الهامات البشرية . غير أن الشاعر لايريد هذا المعنى المادي الذي يشترك فيه الانسان مع الحيوان . .

فماذا يريد الشاعر ؟

إنه يريد المعنى الانساني والقيمة العليا ، والنفحة الربانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى بني آدم حين خلق آدم ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة . . ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾[٣٨]

إن الشاعر يريد أن يقول إن وجود الانسان بدون المعاني الانسانية والنفحة الربانية كوجود شيء مجرد عن معناه وعن محتواه وعن حقيقته وجوهره . . فالشيء بدون مضمون حقيقي لا شيء . والانسان بدون مضمون انسانيّ لايعد إنساناً .

ولقد علمنا القرآن الكريم أن الايمان الذي لاينفع صاحبه يستوي وعدم الايمان . قال تعالى : ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا** ﴾ .[٣٩]

وعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصلاة الخالية من الخشوع ليست صلاة . ولقد رأى رجلا يصلي صلاة سريعة ، فقال له بعد أن انتهى : « صل فإنك لم تصل » .

فالشيء الذي يتحقق فيه مضمونه وجوهره هو موجود حقا وإلا فهو معدوم . .

أليس الشاعر بعيد المرمى عميق الهدف ؟

أو ليست دلالة بيتيه أوسع مدى من معناهما وأعمق وأكثر ايغالا ؟

وعندما نقرأ الآية الكريمة : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب** ﴾ ، نجد المعنى واضحا .

ولكن ما دلالة الآية الكريمة ؟

لقد توسع البلاغيون والدارسون لاعجاز القرآن في بيان معنى الآية ، ووازنوا بينها وبين قول العرب ـ قبل الاسلام ـ « القتل أنفى للقتل » .

ولعل الاصوليين طبقوا مبدأ المخالفة فقالوا : إن ترك القصاص ينفي الحياة السليمة لشيوع القتل « لأن من أمن العقوبة أساء الأدب » .

وتبقى بعد ذلك دلالة الآية . . فما هي ؟

إن الدلالة المقصودة بالآية الكريمة أن القصاص العادل يحقق الحياة المثلى للمجتمع وللأفراد : الحياة المستقرة التي يتحقق فيها الأمن والطمأنينة والسعادة ، إذ لا سعادة بدون أمن ، الحياة التي ينام فيها الانسان وبابه مفتوح فلا يخاف من أحد . . . وبذلك يبذل كل إنسان طاقات العقلية والنفسية ويشعر بالسعادة والطمأنينة بينهم . .

هذا ما فهمته من الآية . .

وهذه دلالتها القريبة . . .

وقد عرضت سورة الفتح : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ على جماعة من الصحابة ففسرها جلهم على ظاهرها ، إلا ابن عباس (رضي الله عنه) ، فإنه ظل ساكتا . فقال له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : تكلم يا ابن عباس . فتكلم وقال : إن السورة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يقول للرسول الكريم : إنك قد بلّغت الأمانة وأديت الرسالة على أحسن وجه . . . فاستعد يا محمد إلى لقاء الله . .

فاستحسن منه عمر الفاروق هذا الفهم .

فأي فقه بعد هذا يطلبه الانسان ؟

وأي فهم بعيد المرمى ، عند ابن عباس ؟

فما أبعد الفرق بين المعنى الظاهري للنص ودلالته ؟

* * *

وقد لاحظ « عبد القاهر الجرجاني » أن (الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد ـ مثلا ـ بالخروج ، فقلتَ : خرج زيدٌ . وبالانطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق . . وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل إلى الغرض . ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل ، ألا ترى أنك إذا قلت : هو كثير الرماد ، أو قلت : هي نؤوم الضحى ، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك كمعرفتك من « كثير الرماد » أنه مضياف ، ومن « نؤوم الضحى » في المرأة أنها مخدومة لها من يكفيها أمرها » .[٤٠] .

وسمى ـ عبد القاهر ـ النوع الأول من الكلام : « المعنى » . وعرفه بقوله : (المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة) . وعرف النوع الآخر بقوله : « معنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر » .[٤١]

وهذا الذي عناه عبد القاهر بمعنى المعنى هو (الدلالة) . .

* * *

وتشترك التعريفات التراثية والحديثة في إهمال مناهج البحث الدلالية ، عند تعريف « علم الدلالة » .

فقد توصل « عبد القاهر » (بعد الاستفادة من جهود اللغويين العرب الذين سبقوه)[٤٢] إلى النظرية المعروفة بنظرية النظم . وهي نظرية دلالية متكاملة ، سبق فيها عبد القاهر علماء اللغة المحدثين ولاسيما جومسكي N.CHOMSKY مما دفع بعض الفضلاء المحدثين إلى تقرير هذه القضية في بحث مقارن .[٤٣]

وقد قرر عبد القاهر أن اللغة مجموعة من العلاقات وليست مجموعة من الكلمات ، وفي ذلك يقول في كتابه دلائل الاعجاز : (اعلم أنه ليست المزية بواجبه للكلمات في نفسها من حيث هي على الاطلاق ، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض) .

وعندما يدرس هاريس (Z. Harris) « منهج المدرسة البنائية » ،[٤٤] فإنه يدرس

موضوعا هو من صميم علم الدلالة .

وعندما يدرس كل من كاتز J. Katz [٤٥] ، وباخ E. Bach [٤٦] ، وليج G. Leech [٤٧] ، (منهج نظرية القواعد التحويلية) في دراسة اللغة ، فإنهم يدرس موضوعا يعد من صميم علم الدلالة .

* * *

وخلاصة رأينا أن علم الدلالة هو أوسع مدى وأعمق مفهوماً من المعنى ، وأن كل دلالة تتضمن المعنى ، وليس كل معنى يتضمن الدلالة فبين الدلالة والمعنى عموم وخصوص .

والذي أراه أقرب إلى الصواب في مفهوم علم الدلالة ، : ـ

أن علم الدلالة هو العلم الذي يدرس بطريقة منهجية مفهوم الكلمات ووسائل تحديد علاقتها بالعالم الخارجي . ويدرس تطور الدلالة واتجاهاته . ويدرس العلاقات الدلالية بين المفردات ، من ترادف وتضاد وتقابل . . كما يدرس الأساليب اللغوية المختلفة كالأمر والنهي والاستفهام وما لها من دلالات . . ويدرس التراكيب النحوية والعلاقات بين أجزاء الجملة من فاعلية ومفعولية وسببية .ويدرس السياق وأثره في تحديد الدلالة . . . وأخيرا يدرس المناهج الدلالية وسماتها . . .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES

الهوامش والاحالات

*ملاحظة : ـ

(جعلت قائمة المراجع والاحالات شيئا واحدا ، وأدرجت ما يتصل بالمرجع من سنة الطبع وغيرها في مكان واحد هنا فأغناني هذا عن إفراد قائمة بالمراجع وتفاصيلها) .

(١) تهذيب اللغة (دل) ١٤/٦٦

(٢) الصحاح (للجوهري) : (دلل) ٤/١٦٩٨

(٣) اللسان (دلل) ١٣/٢٦٤

(٤) كتاب التعريفات (للشريف الجرجاني) ، (ط. لايبسك ١٨٤٥م) .

(٥) شرح الكوكب المنير ، المسمى بمختصر التحرير ، في أصول الفقه ، تأليف : محمد بن أحمد بن عبد العزيز ، المعروف بابن النجار (المتوفى ٩٧٢هـ) ، نشر مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بمكة المكرمة ، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، بتحقيق الدكتورين : محمد الزحيلي ونزيه حماد ١/١٢٥

(٦) . (٧) (٨) البيان والتبيين ١/٧٦ (بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ط الخانجي) .

(9) S. Ullmann: The Principles of Semantics. P.1 (Glosgow University publications, 1967).

(١٠) علم اللغة التطبيقي ، للدكتور محمود حجازي / ٨٠ ، محاضرات بكلية الآداب بجامعة القاهرة . ١٩٨٠ .

(11) R.H.ROBINS: A Short history of linguistics p. 185 (Longmans linguistics Library, 3rd. Impr. 1976).

(١٢) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، للدكتور نايف خرما ، ٣١٨ (الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة ـ ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) .

(13) ROBINS: ibid., p.199. Ullmann: ibid., p.2.

(14) Ogden and Richards: The Meaning of meaning, p.5 (10th edition, London 1972).

(١٥) دور الكلمة في اللغة ، تأليف : ستيفن اولمان / ٦١ (ترجمة الدكتور كمال بشر ، ط. ثالثة ، القاهرة ١٩٧٢) .

(16) The Meaning of M. p.117.

(١٧) في كتابه : دور الكملة في اللغة / ٦١ .

(18) L. Bloomfield: Language p. 139, (London 1962).

(19)Ullmann: ibid., p.1.

(٢٠) علم الدلالة (ترجمة السيد عبد المجيد الماشطة وزميليه) ص ٩ (مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٠) .
(21) F.R. PALMER: Semantics, p.1 (Cambridge 1977).

(٢٢) سورة الشعراء ، الآية ١٩٥
(٢٣) سورة الفرقان ، الآية ١٢ .
(٢٤) سورة الأنعام ، الآية ٨٢
(٢٥) سورة الذاريات ، الآية ٤٧
(٢٦) سورة الحج ، الآية ١٥
(٢٧) نظرية المعنى في النقد العربي للدكتور مصطفى ناصف / ٩٧ (ط . ثانية بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) .
(٢٨) المزهر في علوم اللغة وأنواعها (للسيوطي) ١/٥٨٤ (ط . القاهرة ١٩٥٨م ، بتحقيق أبي الفضل ابراهيم وزميليه) .
(٢٩) مجالس العلماء للزجاجي / ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .
(٣٠) المستصفى من علم الأصول ، للامام الغزالي ٢/١٣ (ط . المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧) .
(٣١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٠ .
(٣٢) سورة النساء ، الآية ٨٠
(٣٣) سورة طه ، الآية ١٢٤ .
(٣٤) سورة الزمر ، الآية ٣٦ .
(٣٥) سورة التين ، الآية ٨
(٣٦) ينسب البيتان لجرير ، ولغيره .
(٣٧) ينظر كتاب الأغاني (ترجمة أبي العتاهية)
(٣٨) سورة ص ، الآية ٧١
(٣٩) سورة الأنعام ، الآية ١٥٨
(٤٠ ـ ٤١) دلائل الاعجاز ، صفحات : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، تصحيح الشيخ محمد عبده ، ط . خامسة ، دار المنار ، ١٣٧٢هـ .
(٤٢) ينظر بحثي : نظرية النظم النحوي قبل عبد القاهر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
(٤٣) مقال منشور بمجلة الاقلام العراقية ، العدد التاسع سنة ١٩٨٣ ، صفحات : ٨٨ ـ ٩٤ (للدكتور خليل عمايرة) .

(44) Z. HARRIS: Methods in Structral Linguistics (University of Chicago press. 1951).
(45) Jerrald J. Katz: Semantic Theory, p.363 ff. (Harper International Edition, 1972).
(46) E.BACH: Syntatic Theory, 133, 216 (Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1974).

(47) G. Leech: SEMANTICS, (Penguin Books, 1974), p.325, See also: J.T.Grinden: Guide to TRANSFORMATIONAL Grammar, (N.Y. 1973).

معهد البحوث والدراسات العربية